تلقي الأنساق في الفكر العربي: مقاربة ثقافية لكتاب "البخلاء"

Receiving patterns in Arab thought: a cultural approach to the book "The Misers"

Errougui Soukaina
Narrative and Cultural Forms Laboratory
Sultan Moulay Slimane University, Morocco,
Faculty of Arts and Human Sciences, Béni Mellal

Abstract:
Text was and still is the most flexible field for applying scientific methods, and the deepest for conducting various applications, if we are talking about curricula that study texts, digging into their epistemological backgrounds and searching for the cultural content, not its aesthetics. This perception makes us recall cultural criticism and the semiotic approach as falling within the context of post-modernism, and they are two approaches in which the first neglected the artistic view of the text, while the second remained somewhat drawn to the aesthetic trend in recognition of the literariness of the texts and looking at them from a cultural angle.

If the true method is not believed in if it does not search for the facts of reality and the rules that control it – as Al-Ghudhami said – then this depends on controlling the concepts of the method that are biased from the principles of literary criticism, according to what it means to move away from searching beyond the text as a more specialized unit, according to Barthes' expression. This aspect is crucial in monitoring cultural experiences, their symbols, and their declared implications at the intersection of systemic codes that diagnose the breadth of discourse and its relational transformations away from the aesthetic to diving into implicit patterns.

Recently, we notice, and very excitingly, an increase in interest in cultural criticism and its methods from all levels and aspects, as we are faced with trends that emerged from the womb of several theories to compose an approach to it, an inductive method for its manifestations in literary and non-literary texts, in a deeper and more accurate way, reflecting the development of the method and the uniqueness of the work. Literary literature suitable for theoretical and applied study.
Keywords*: Scientific Methods, Cultural Criticism, Cemiotic Approach, Al-Ghudhami.*

المدخل

كان النص وما يزال الميدان الأكثر مرونة لتطبيق المناهج العلمية، والأعمق لإجراء تطبيقات متنوعة، هذا إذا كنا نتحدث عن مناهج تدرس النصوص حافرة في خلفياتها الابستمولوجية وباحثة في المضمر الثقافي لا جمالياته. حيث يجعلنا هذا التصور نستحضر النقد الثقافي والمنهج السيميائي باعتبارهما يندرجان في سياق ما

بعد الحداثة، وهما منهجان غيب الأول النظرة الفنية للنص، في حين، أن الثاني بقي منشدا نوعا ما للتيار الجمالي اعترافا بأدبية النصوص والنظر لها من الزاوية الثقافية.

وإذا كان المنهج الحق لا يؤمن به إذا لم يبحث عن حقائق الواقع والقواعد المتحكمة فيه –كما قال بذلك الغذامي – فإن ذلك رهين بضبط مفاهيم المنهج المنحازة عن مبادئ النقد الأدبي، وذلك بمقتضى مفاده النأي إلى البحث فيما وراء النص كوحدة أكثر تخصصا حسب تعبير بارت، وهذا الجانب حاسم في رصد التجارب الثقافية ومرموزاتها ومحمولاتها المعلنة عن تقاطع شفرات نسقية تشخص اتساع الخطاب وتحولاته العلائقية المبتعدة عن الجمالي إلى الغوص في الأنساق المضمرة.

نلاحظ في الآونة الأخيرة، وبشكل مثير جدا، تزايد حلقات الاهتمام بالنقد الثقافي وأنساقه من كافة المستويات والجوانب، حيث أصبحنا أمام اتجاهات انبثقت من رحم نظريات عدة لتؤلف عنه ناهجة طريقة استقرائية لتجلياته في النصوص الأدبية وغير الأدبية، بشكل أعمق وأدق، يعكس تطور المنهج وفرادة العمل الأدبي الصالح للدراسة النظرية والتطبيقية.

وفي محاولة تأسيس نظرية ثقافية تهتم بالمتن النثري العربي على غرار غيره الشعري، التي صادفنا أثناء قراءتنا للجاحظية منها، (البخلاء)، بأنها مؤهلة لتجريب هذا الصرح المنهجي، وفق تصور ما بعد حداثي عاكس للأنساق المضمرة في المتنين السابقين وخاصة الأول الذي أضمر الكثير من المفارقات السياسية والاجتماعية التي عُبر عنها في قالب مجازي.

إن اللافت للانتباه هو حدة الاهتمام بالتراث الجاحظي من الزاوية الشعرية، إهمالا لكل الحيثيات والمخبوءات الأخرى التي لم تهتم بها البلاغيات المنكبة نحو النسق الصوري الدلالي وأبعاده الشعرية، فأغفلت بذلك ما يسكت عنه هذا التراث ونظائره من مضمرات نسقية مختلفة تحول دون البحث في الوضع السياسي والاجتماعي والثقافي الذي كان سائدا في سياق الوجود الذاتي وعلاقته بالجماعة، وأيضا، كل ما يتعلق بكيفية تحقق الهيمنة في علاقتها بالسلطة الحاكمة. هي رؤى تجعلنا لا نضرب في الدراسات السابقة التي درست متن الجاحظ – ونخص البلاغتين القديمة والحديثة –، أو أعطت إشارات عنه، إن لم نقل إنها تحتاج إلى إعادة بعث المتن التي شكلت مادة اشتغالها، كلها، تفحيصا وتمحيصا لسبر أغوار حقائق أخرى باطنة، وربما مغيبة، لتشكل كل هذه المعطيات بمفارقاتها وتداخلاتها التشكيل الذي سيخط مسار هذه الورقة التي اخترت لها وسم " تلقي الأنساق في الفكر العربي: مقاربة ثقافية لكتاب البخلاء ".

وعيا منا بأهمية الموضوع (تلقي الأنساق في الفكر العربي)، وتأكيدا على ضرب جذوره في عمق التاريخ، وإثباتا بأنه قد كان محور اهتمام ضمني للعديد من الباحثين، قررنا الاشتغال عليه في أعمال الجاحظ المتميزة بنزعتها الفكرية المنفردة، مكرسين بذلك كل المجهود لرد الاعتبار للنص/ الخطاب التراثي ودراسته رؤية جديدة. ومن منطلق هذا التصور يمكن أن نفرع هذه الورقة إلى ثلاثة أسئلة:

ما المقصود بالنسق؟ ما الحمولات الثقافية التي يحملها عنوان "البخلاء"؟ كيف تلقى العربي نسق البخل باعتباره معارضا لما ألفه في ثقافة العرب؟

أ – رؤية حول النسق ودلالاته

يطرح النسق في السياق الغربي مدلولات عديدة، ويتأرجح في الحقلين اللساني والثقافي بين مقابلته بالصيرورة، كما تصوره (لويس تروله هيمسليف Louis Trolle Hjelmslev)، والخطاب كما تبناه (ميشيل فوكو Michel Foucault) في الكتاب الموسوم بـ " الهائل حول تاريخ الحمق". ويعد ذاك السابق مؤسسا للأنساق وكاشفا لانحرافاتها واحتجازاتها المتصادمة المبررة بحجج دلالية علنية سميت بـ "الطب العقلي"، المعبر عن وضعيات الأفراد المحتجزين الذين اتخذ اضطرابهم وسيلة لتبرير حمقهم، وفرض صورة نمطية مع الآخر الناظر لهم من منظور مختلف، هو مؤول وليس هادفا ما دام إعلانا للآخر بأنه يرسم حدود التخلص من المضطربين بصورة أحسن،" بخلق مجمعات من النفايات الاجتماعية وأن ينظم بنيته الداخلية بتحديد موقع ما هو خارجه"[1]. وهكذا استأنفت تجارب الهامش عنصرا مغديا للبنية التحتية المخبوءة، لتتمظهر عبرها إطلالة ترسم معالم فكر عقلاني من تجارب المضطربين والمنبوذين اجتماعيا، غرضها كاشف عن مضمرات المستشفى وعمق الخطابات الموظفة فيه أثناء القرن الثامن عشر وما بعده، ومفرز ، في الإطار نفسه، لكل العلاقات الجدلية الخطابية. وهكذا يمسي فوكو بانيا لمنهجه الأركيولوجي الهادف والمستنطق للأنوية الداخلية.

يدرك فوكو أن هذه المضمرات أحداث محملة وحاملة للدلالات الضمنية والمخبوءة، ومصممة ومُهيكلة أيضا للبنى الداخلية للخطابات، إننا بهذا المعنى، أمام منهج علمي عملي يبئر الخطابات المؤسسية التي تخبئ تحتها القضايا، وكل الفلسفات القبلية التي كرست أفكارا تبنيناها دون وعي، غافلين – حسب تعبير فوكو – أن الحاضر صامت، نرتكز عليه، إلى اليوم الذي يتماثل فيه إلى الانهيار حاملا معه أوجه معرفتنا، ومنه، تكون مهمة البحث عن المضمر وفيه استقراء يضرب في عمق الذات التي تربصت موضوعاتها ولم تقاربها بنية، ونتيجة حتمية للأولى تنحو أركيولوجية فوكو مبتعدة عن المدلولات المجاورة "التي هي الإغلاق عند دريدا (منغلق بدون خارج، وحدود بدون حافة)، أو مع " الإشكالية الألتوسيرية (التي هي رحم خطاب لا نظام

توزع)، وهي كلها مدلولات تؤدي وظيفتها جيدا في المجال الذي تنتمي إليه، وليس لها من الميزات الإضافية ما يجعلها تقول عن نفسها أنها بنيوية"[2].

يظل فوكو إيجابيا، ومحوريا لأنه يتوسل بمخبوء ونسق الإنتاج، إذ يتجاوز المؤسسة إلى البحث في خطاباتها السلطوية، السلطة التي لا تخرج من حلبة الصراع نقطة تلتقي عندها الرغبة والمتعة معا، وتتقلب وفق أشكال معينة تمرر بها ، وهنا تنكشف حقيقة النسق التي تم الإسراف في تغطيتها، وكذلك السكوت عن تغطية " الركام من الممنوعات والتابوات (Tabous) والحواجز التي تراقب إنتاجه وتراقب المبالغ في استعماله"[3]، ومنه، فتدليس هذه الحقائق كشف أن الخطاب بشموليته يتضمن عيوبا تعتري بناه الضمنية، التي لا نكران أنها قد تنفلت من الرقابة باستعمال خطابات أخرى، تقع خارج النفوذ المحروس. تأسيسات عقلية انطلقت من اللاعقلي والتابوات للحفر في المعرفة التي " لم تكن سوى الوجه الآخر لمنشأ السلطة، وللبحث في البنية الضمنية للمعرفة (الابستيمية) والدوائر المأساوية للاحتجاز الكبير. وأن المعرفة الكبيرة كانت تحمل في ثناياها السجن"[4].

وإذا كان فوكو قد توفق في معالجة الأنساق المضمرة عبر الاشتغال على الخطاب، فإن الغذامي يعبر عن الموضوع نفسه، الاهتمام والتوجه بحثا في المضمر، غير أن الرؤية أصبحت أكثر دلالة.

يظهر عمل الغذامي حول النسق وبشكل دقيق في زحزحته للسائد والتمرد على الأعراف النقدية الجمالية الموروثة، ففي مطلع حديثه عن هذا المفهوم، ما النسق الثقافي...؟ وكيف نقرؤه...؟ وكيف نميزه عن سائر الأنساق...؟ يستأنف مجيبا بأنه يتميز بالموسوعية والشمولية، حيث يتعدى الخطاب الخاص/ الرسمي إلى العام، ويأتي إما "مرادفا لمعنى (البنية – structure) أو (النظام –system) حسب سوسير، وقد اجتهد باحثون عرب في تصميمهم مفهومهم الخاص للنسق"[5]، وصاغوا قيمه وسماته الاصطلاحية الخاصة، التي ترتبط وثيقا بالوظيفة النسقية، التي يظهر مضمرها ماسخا لظاهر في نص اتفقت الجماهير على أنه جمالي، استبعادا "لـ (الرديء) و (النخبوي) عبر شرطي الجمالي والجماهيري"[6]، اللذين عدا من عوائق الكشف عن الأنساق المضمرة المتضمنة لعيوب وأيديولوجيات مررت بذرائع متعددة، ومنه فالكشف عن الأنساق المضمرة يمسي هو مشروع نقد الثقافة. ويشتغل النسق عبر الهيمنة في إطار تفاعلي، والمقصود أنها توظف خطابات خاصة بها.

يدرك الغذامي أن النسق باعتباره مفهوما ثقافيا، هو في كنهه مركب، يتداخل فيه المعرفي بالسياق، الدلالات بالتأويلات، فضلا عن اقتحام عدة مفاهيم وقضايا مجاله، ونطل هنا على الهيمنة التي تشغل نفسها في إطار

تفاعلي موظف لخطابات خاصة، وتتضمن أنساقا لا يمكن الكشف عنها إلا بتوظيف النقد الثقافي الذي يتجاوز الجمالي إلى الحفر في أعماق النصوص، استكناها للمخبوء وتعريته رغبة في كشف الحجب الثقافية المضمرة، وعلاوة على نوع الجنس الذي يتضمن هذه المضمرات، يعطي ناقدنا مثالا بالشعر وخطاب الحب وخطاب الصعلكة، يقول: " وإذا قرأناها كأمثلة، فإننا في ظاهر الأمر نقرأ أدبا جميلا وشعرا خلابا، وعشقا رقيقا يطرب النفس، وتتبدى لنا هذه الصنوف كأنها صنوف أدبية فنية عالية الفنية حتى نقبل ما فيها بدعوى جماليتها، أولا، وبدعوى مجازيتها، ثانيا، ومن ثم فإننا لا نحاكم منطقها ولا دلالاتها محاكمة عقلانية، ولا مساءلة نقدية لمضمرها بما أنها قول بلاغي غير حقيقي، ولا يصح قياسه بمقياس الحقيقة"[7]، حقائق وجب استجلاؤها لا سطحيا، بل تعميق البحث فيها، مساءلة لكل ذلك الجمالي، الذي ظل يلعب أوراقه مضللا الوقائع، ومقيدا الإنسان ومخضعا إياه تحت سلطة الجمالي المتغني بأدبية الأدب، التي لا ينكرها ناكر، ولا يضرب في أهميتها الذوقية باحث، بغير إغفال بأن هذا الجمالي قد حان أوان تعرية أنساقه المضمرة.

ب – العنوان مدخل للتمرد النسقي

جاء في لسان العرب لابن منظور " وعننت الكتاب وأعننته لكذا أي أعرضته له وصرفته إليه، وعن الكتاب يعنه عنا وعننته، كعنونته وعلونته بمعنى واحد، مشتق من المعنى (...)

ويقال للرجل الذي يعرض ولا يصرح، قد جعل كذا وكذا عنوانا لحاجته وأنشد.

وتعرف في عنوانها بعض لحنها... وفي جوفها صمعاء تحكي الدواهيا

قال ابن بري: العنوان الأثر.

وقال سوار ابن المضرب:

وحاجة دون أخرى قد سنحت بها جعلتها التي أخفيت عنوانها

قال: وكلما استدللت بشيء تظهره على غيره فهو عنوان له كما قال حسان ابن ثابت يرثي عثمان رضي الله عنه:

ضحو بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحا وقرآنا

وقد يكسر فيقال عُنوان وعِنوان "[8].

ويعد البحث في مسألة العنوان حقلا دلاليا محملا بالعديد من الخلفيات، التي تتعدد باختلاف الحقول الابستمولوجية التي تناولته بالدراسة، وسواء تعلق الأمر بالسيميائيات التي تهتم به عتبة من العتبات النصية، أو الشعرية التي تعنى ببلاغته وقدرته على إيصال المعنى بطريقة بلاغية، أو بالنقد الثقافي الذي ينظر إلى

محمولاته الثقافية ومضمراته، فإنه لا ينفي عنه كونه مفتاحا أساسيا لفهم المتن واستيعاب مغزاه، ومنه، فتعدد أوجه المقاربة لن تزيده إلا غنى وتوسعا.

وتأتي فكرة إدراجه في مقدمة المحاور لأهميته، فهو علامة ثقافية تفرض على الدارس تحليلها قبل اقتحام النص/ الخطاب وولوجه عوالمه.

يراهن النقاد والدارسون على البدء بالعنوان عتبة للتحليل، لأنه مدخل أساسي، ملخص للعمل، حاصر لهوامشه. واستطلاعا لحقيقة " العنوان، الذي يعد هو نفسه عنوانا عريضا بارزا، نجد أنه منجز كبير في حقل النظريات السردية الحديثة في الغرب، وبالتحديد مع جيرار جنيت الذي اعتنى كثيرا بالمصطلح (العتبات SEUILS) وخصه بكتاب يحمل نفس الوسم. إضافة إلى كتابه الثاني " أطراس Palimpsestes""[9].

مما لا شك فيه، أن (العتبات) المصطلح الأكثر مرونة، والأعمق إجراء لبدء قراءتنا الثقافية. أمر يصير التأكيد على فهم الخطابات من عناوينها مرهونا باستحضار السياقات الثقافية التي أنتجت فيها النصوص الإبداعية التي يشاع أنها جمالية، في حين أنها محملة بأنساق ثقافية ليست سهلة الإدراك والكشف بعيدا عن الإحاطة بإطار الوعي الجمعي المراكم لهذه التجارب النسقية. لتكون الفكرة، التي تعبر عن نفسها، مأخوذة من اصطلاحيته التي تمكنت عبر، – التقليد النقدي – ، اختزال النص/ الخطاب في هذه النواة المعنوية، وبمقتضى ما سبق، تُفرز الدلالة الاصطلاحية للعنونة ذاتها، خيطا ناظما وكاشفا عن المعاني الغالب عليها الطابع الشعري المثير لشهوة القراءة، والجاذب للقارئ الذي غرق في الجماليات، ونسي أنها (العنونة) تخفي تحتها أنساقا مضمرة تستدعي بحثا رصينا. وبالتالي، فحقيقة المتن، – ربما – لا يظهرها العنوان، بل يضمرها لدواعي الجلب وإبعاد نفور القارئ من الكتاب. ولذاك السبب، يمكن أن نعي بأن الدلالة المجازية التي يفضي إليها العنوان غالبا ما تكسرها الدلالة الثقافية المخبوءة، وذلك بمقتضى قراءة النص/ الخطاب، الذي يحيل بدوره على مكنونات دواخله.

لا يمكن أن ننفي بأن بعض العناوين تفجر دلالاتها من الوهلة الأولى، لكن التعميم عليها كلها كان من باب التأخير، واستنتجنا هذا من كم خطاب ومتن؟، إن النص أو الخطاب، بهذا المعنى، وحده، هو ما يفجر الدلالة العميقة، وهي الثقافية المخبوءة تحت السطور، لتشكل هنا، إواليا‌تها، معان سطحية، تعتريها العيوب التي تستدعي الفضح، لفتح القارئ على إمكانية العثور على هذه المضمرات عوض الانسياق وراء جماليات الإبداعات وفنيتها.

نقرأ من عناوين أعمال الحاحظ، سواء أتعلق الأمر، بـ "الحيوان"، "البخلاء"، و "رسائله"، – والتي سنحاول مقاربة الثاني منها ، كشفا عن مخبوءاته ومضمراته نسقيا فيما سيأتي من الورقة –، بأنها شعرية جمالية خلقت فرادتها الأدبية، لكنها في الآن نفسه، مفخخة بالحمولات الثقافية التي هي عبارة عن أنساق مضمرة، قدم فيها الهزل، والطرافة، والسخرية، بأبعاد تُوهم شعريتها بالانسياق وراءها، في حين، هي ليست إلا أغطية وحجب ثقافية تخفي ظواهر، مثل: الظلم، والوحشية البشرية، والجبن، والبخل، والجشع...، في شتى التجليات، الأمر الذي يصير الأعمال، وبالتالي كل عتباتها ضد ما تعلنه، فتتقنع بتلك الوسائل الجمالية للانفلات من الرقابة الاجتماعية.

يسهم العنوان على غرار غيره في تفكيك النسق، ويمكن أن نشرعن العملية على كم عمل إبداعي. لكننا في بحثنا هذا، قد اخترنا كتاب "البخلاء" الذي أنتج في فترة زمنية معينة (العصر العباسي)، وذلك لإبراز الحمولات الثقافية المتضمنة فيه.

يفصح العنوان: " البخلاء"، عن ماهية النسق وبنيته ودلالاته، ليعد بمثابة نقلة نوعية في عصره، هي تمردية على الواقع والحال الذي عاشه صاحبه (الجاحظ) في علاقته بالخليفة المأمون وبعده المتوكل، ليعكس أسلوبه الهزلي التعبير عن الواقع الاجتماعي والسياسي التي عانته شخصية الإنسان العباسي.

إن المتأمل في كيفية اشتغال نسق البخل، وتلقيه اجتماعيا، تبدو له أنها مخالفة لما عرف به الإنسان العربي، إذ يظهر في الشق الأكبر أن الفكر الجاحظي، بغض النظر، عن بيانه وأسلوبه النثري البليغ، بأنه يخطو نحو اتجاه نقدي ثقافي سابق لأوانه، وهذا ما يعطي للمفكر رؤية أكاديمية واعدة تتجاوز المكرر إلى التعبير عما يكتنزه الأدب من أنساق تتجاوز الرؤية البلاغية إلى تقديم فلسفة وجودية نعي عبرها دواخل الإنسان. وبمقتضى ذاك، نبين بأننا أمام نقلة نوعية ورؤية جديدة، غيرت اتجاه الأدب من طابعه السياسي السلطوي الذي ارتبط بتيمة الكرم الحامية لهبة الملوك والحكام والأعيان، إلى طابع نقدهما. إن الربحية، بهذا المعنى، هي السبب الرئيس في تكريس وإعلاء الكرم الذي ظل يخبئ البخل تيمة نسقية، وهكذا نبين بأن هذه الأفكار قد خطت مسار أفق ممدود أصبح فيه الأدب متنا لدراسة الأنساق الثقافية المضمرة التي لطالما تم اعتبارها مسكوتا عنها، خاصة، في ظل التحول الأدبي، الذي أسهم في تمخض أجناس جديدة، مثل: المقامات، وألف ليلة وليلة، ورسائل الجاحظ ومؤلفاته، وهي نثرية فرضت وجودها إلى جانب الشعر، الأمر الذي أسهم في تحول جوهري لتيمة الجود الذي ارتبط بالشعر إلى التعبير عن العيوب النسقية التي تضمر تحتها البخل.

ج – تلقي نسق البخل في العصر العباسي

عرف العرب بصناعة الشعر الذي فَتن الناس ببراعة شعرائه وجودة بيانه وحسن معانيه، فتهلهل التعامل معه على أنه جمالي لا يعتريه نقص وتشوبه شوائب، تصور حكم عقلية المثقف العربي، الذي هو بدوره ساهم في صناعة ما سماه الغذامي بـ (الصنم البلاغي)، وهو متجدر في عمق التاريخ، عبر تغنيه بالأنا، ووهبها بذلك قيمة متعالية تسمو بها عن النقد، في حين أن نقد الشعر بعيدا عن الذوات الشاعرة التي أنتجته وتفننت في نظمه، يحيلنا على تعرية أنساق لم يلج النقاد الأدبيون دواخلها.

يبتعد الجاحظ في كافة مؤلفاته، عن السائد والمألوف، عبر الإعلان عن نسق معارضته لما تم إضماره تحت تيمة الكرم والسخاء التي عرف بها الإنسان العربي، ويبدي العنوان دلالة الإعلان التي لطالما مُوهت مجازيا في مؤلفات أخرى، نحت عبر إضمارها للعيوب النسقية مسار المجازية، الشيء الذي يجعل الدارس يتيه وراء البنية البلاغية ناسيا ما تضمره البلاغة من أنساق تستدعي استقراء عميقا. وهذا الأمر هو ما تم التعارف عليه وجسدته ثقافة الشعر، عبر إقبار الأنساق تحت سردية الكرم، التي سردها العرب وتوارثوها، ومنه فظهور النثر كان تكسيرا لفلسفة الوجود الشعري الذي تم التعارف على قيمه المكرسة للأصالة المضمرة لنسقيات أخرى، منها نسقية البخل التي خصص لها الجاحظ كتابا كاملا، وعليه، فعرض الجاحظ لمسار سردية البخل التي جسدت ورسمت ملامح شخصية الإنسان العباسي، هي ثورة أثارت المذموم في الثقافة العربية (البخل)، الذي يعكس الجانب المعيب في العربي البخيل الذي ذمته ثقافة الشعرية وعبرت عن جمالياته المزيفة المرتبطة بالكتابة ونسقية الوجود الأجناسي.

إن الأدلة النثرية قد فسحت المجال لنسقية البخل بالبروز، عبر تقديم أدلة كثيرة لشخصيات وازنة في العصر العباسي، منها شخصية سهل بن هارون الذي أعاب عليه وذمه كل من محمد بن زياد، وبني عمه من آل زياد، الشيء الذي يحيل على وجود عيوب السلطة والبخل والفتنة، وهي كلها أنساق تعيش تحت سلطة الاجتماعي الذي يتغدى بدوره على السياسي.

تتجلى نسقية البخل وترسم معالمها من خلال إهانة الآخر وإبداء المعيب فيه (سهل بن هارون) تحت ذريعة التقويم، أمر نؤكد من خلاله أن هذه الشخصية نفسها كانت واعية بأن الذي يعيبون بخله يشون بوجود العيب فيهم، ولذلك وجدناه يخاطب بني تميم، بمناداتهم داعيا إياهم تجنب الحديث في عيوب الناس، يقول: " يا معشر بني تميم لا تسرعوا إلى الفتنة، فإن أسرع الناس إلى القتال أقلهم حياء من الفرار، وقد كانوا يقولون: إذا أردت أن ترى العيوب جمة فتأمل عيابا فإنه يعيب بفضل ما عنه من العيب وأول العيب أن تعي بما ليس

بعيب، وقبيح أن تنهى عن مرشد أو تغري بمشفق, وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم، وإلا إصلاح فسادكم وإبقاء النعمة عليكم"[10].نفهم من هذا المقطع بأن العيوب والفساد الاجتماعي كانا سائدين في العصر العباسي، أمر تم الكشف عنه من خلال منثور الأدب، وهو ما يجعلنا نؤكد بأن العصر العباسي قد شكل ثورة عن السابق، بإعلاء وإعلان النسق المضمر، مبرزا أنه متواجد ومتواتر في الحياة الإنسانية التي عبر عنها أدبيا، في شكل ثائر على ثقافة الشعر التي لطالما ارتبطت بالجماليات، ناسية بأنها ليست إلا مدخلا معبرا عن انفصام في شخصية العربي.

يمكن أن نؤكد، بأن الجاحظ قد تمرد على الجماليات، عبر إعلان المضمر "البخلاء"، عوض الانتصار لـ " الكرماء" ، ليصرح عبرهم بأن عيوب الفرد جمة، هي عيوب تنفي علاقة الفرد بالجماعة، في سياق جدلية النبذ المفروض، ما نفهم من خلاله بأن وضعية الإنسان العربي كان متحكما فيها قبليا تحت ذريعة التقويم والإصلاح، وعليه، فالهدف من تركيز عملية التقويم الفردية للضمير الأنوي ليس إلا حجابا، ظلت تتوسل به الجماليات لحجب القيم السلبية الحقيقية التي ظلت متعيشة على الشعري، وبمقتضى كل ذلك، فالسلطة القبيلة (العصر الجاهلي)، والسلطة السياسة (حكم بني أمية)،قد توسلت بالجماليات لتكريس الكرم الذي ألف التمويه به.

تزداد نسقية البخل معلنة نفسها على حساب الكرم، عبر اعتراف (سهل بن هارون) بما نسب إليه مبررا إياه بحسن التدبير وجودة التصرف والتحكم في الأمور، يقول: " عبتموني بقولي لخادمي: أجيدي عجنه خميرا كما أجدته فطيرا ليكون أطيب لطعمه وأزيد في ريعه"[11]، ويضيف: " وعبتم على قولي: من لم يتعرف مواقع السرف في الموجود الرخيص. لم يعرف مواقع الاقتصاد في الممتنع الغالي"[12]، وهكذا فنسقية البخل عبرت عن التعارضية، مع سياق سابق (كرمية الشعر)، التي تمرد عليها الجاحظ تعبيرا عن البخل باعتباره حقيقة مخبوءة تحت الكرم، وبالتالي، يمسي الأول ظاهرة اجتماعية لم تكن محمودة تمت تغطيتها نتيجة للفكر السلطوي الذي ربط الكرم بالملوك والخلفاء.

يتجلى الوعي بالنسق عبر تتبع تلقيه في المجتمع العباسي مع أهل خرسان المنحدرين من مرو، وقد كانوا كثيري الشح والبخل، ما يدل على أن النسقية قد انتقلت من الفردية إلى الجماعية، في إطار تحول كلي محيل على البخل المادي والمعنوي، عبرت عنه شخصيات عدة، منها المروزي الذي عكس بخله كرهه للضيوف، الشيء الذي يتعارض والنسق الناسخ الذي ظل ينسخ نفسه (إكرام الضيف)، في العصرين السابقين (الجاهلي

– الأموي). إن المتأمل في كره المروزي للضيف وكيفية تعامله معه يضرب في كل الأشعار التي لطالما تغنت بكرم العربي وسخائه، وينضاف إليه ابن كريمة وقصة شحه في الماء، والكندي الذي كان أبخل خلق الله.

الخاتمة

إن ما يمكن أن نؤكد عليه، هو أن الجاحظ في كتاب "البخلاء"، قد كان فطنا وفنانا في نقل واقع صورة العربي البخيل ، معبرا بذلك عن الذات العباسية في علاقتها بالتاريخ والثقافة والسلطة، وقد تم تجسير العلائقية، وفق تصور وجودي نسقي أبرز رابطة الإنسان بالآخر، في قالب تعبيري سلس قوامه البناء الرصين للمعارف، وأساسه الغوص في استنطاق الحقائق، ليعرب تجانس كل ما سبق عن تحقيق الثورة على شعرية الشعر وتاريخيته ذي الوظيفة الأدبية الجمالية عبر الاهتمام بالنثر لا باعتبارها أدبا كائنا (être) بل باعتبارها خطابا يحاول أن يتكلم[13]،

الهوامش

1 فوكو (ميشيل)، نظام الخطاب، ترجمة محمد سبيلا، التنوير ط1، ص 44

2 فوكو (ميشيل)، نظام الخطاب، ص48

3 نفسه، ص 50

4 نفسه، ص 50، 51.

5 الغذامي (عبد الله)، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، ط3، 2005، بيروت لبنان، ص 76

6 نفسه، ص 77.

7 الغذامي (عبد الله)، اصطيف (عبد النبي)، نقد ثقافي أم نقد أدبي، دار الفكر، ط 4، 2004، بيروت لبنان ص 30.

8 ابن منظور، لسان العرب، ص: 310، 311، 312.

9 بلعابد (عبد الحق)، عتبات (جيرار جنيت من النص إلى المناص)، تقديم سعيد يقطين، الدار العربية ناشرون، ط1، 2008، ص 46، 27.

10 الجاحظ (عمرو بن بحر)، البخلاء، تحقيق طه الحاجري، دار المعارف، الطبعة الخامسة، القاهرة، ص 9.

11 نفسه، ص 10.

12 نفسه، ص 10

13 الميلود (عثمان)، شعرية تودوروف، الطبعة الأولى، عيون المقالات للنشر، الدار البيضاء، 1999، ص18.

قائمة المصادر والمراجع

ابن منظور، لسان العرب.

بلعابد (عبد الحق)، عتبات (جيرار جنيت من النص إلى المناص)، تقديم سعيد يقطين، الدار العربية ناشرون، ط1، 2008.

الغذامي (عبد الله)، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، ط3، 2005، بيروت لبنان.

الغذامي (عبد الله)، اصطيف (عبد النبي)، نقد ثقافي أم نقد أدبي، دار الفكر، ط 4، 2004، بيروت لبنان.

الجاحظ (عمرو بن بحر)، البخلاء، تحقيق طه الحاجري، دار المعارف، الطبعة الخامسة، القاهرة.

الميلود (عثمان)، شعرية تودوروف، عيون المقالات للنشر، عيون المقالات،الدار البيضاء.

فوكو (ميشيل)، نظام الخطاب، ترجمة محمد سبيلا، التنوير ط1